الفصل العاشر

بنو أمية ٩٦ — ١٠٥ هـ

(٧١٥ — ٧٢٤ م)

خلافة سليمان — موسى وطارق — وفاة عبد العزيز بن موسى — الخصومات القبلية — اليمانيون — ثورة يزيد بن المهلب — حصار القسطنطينية — كارثة المسلمين — وفاة سليمان — استخلاف عمر الثانى — حكمه — انسحاب الجيش من القسطنطينية — وفاة عمر — استخلاف يزيد الثانى — ثورة يزيد بن المهلب — هلاك اليمانيين — الخصومات القبلية — الكوارث التى حلت بالإمبراطورية — وفاة يزيد الثانى — العباسيون

بويع سليمان بالخلافة بمقتضى وصية أبيه عبد الملك . وكان كريم الخصال محبا للهو ، يؤثر العدل ، ويأخذ بنصائح ابن عمه عمر بن عبد العزيز — الذى ولى الخلافة من بعده — فبادر فور مبايعته بالخلافة إلى فتح أبواب السجون فى العراق ، كما أطلق سراح الألوف الذين كان الحجاج قد زجهم فى غياهبها ظلماً وعدوانا ، وعزل جباة ذلك الطاغية ، وألغى معظم أحكامه الصارمة .

ولو اكتفى « سليمان » بإنقاذ الناس من عسف الحجاج فحسب ، لذهب محمود الأثر فى التاريخ ، غير أنه سمح لعاطفة الانتقام أن تسيطر على مشاعره ، فطفق يضطهد المضريين الذين ناصروا الوليد فى تغيير وصيته ، كما رفع من شأن اليمانيين الذين أخذوا يثأرون لسوء المعاملة التى عوملوا بها فى زمن الحجاج . أما يزيد بن المهلب فيقال إنه بعد أن طوى الموت عدوه اللدود راح يضطهد أقاربه وأصحابه بمرأى ومسمع من الخليفة ، وفى تلك الأثناء لاقى « قتيبة » حتفه فى خراسان فى الثورة الداخلية التى استعرت بين المضريين واليمانيين فى أنحاء الإمبراطورية .

موسى بن نصير وطارق بن زياد

لا نستطيع فى هذا العصر المتأخر أن نعلل سبب المعاملة التى عومل بها القائدان المشهوران « موسى بن نصير » و « طارق بن زياد » ، إذ أن كليهما من أصل يمنى ، فضلا عن أنهما كانا متمتعين برضاء « يزيد » قبل وفاته ، ولكن « سليمان » أساء معاملتهما فقضيا نحبهما فقيرين معدمين ، وهو عمل أقل ما يقال فيه إنه سيبقى أبد الدهر عاراً ووصمة فى جبين خليفة ذلك العهد . وتحدثنا الرواية العربية أن « سليمان » كان عارفا بالمؤامرة التى دبرت لقتل « عبد العزيز بن موسى »[1] الذى نجح فى حكمه إلى حد بعيد ، كما أنه هو الذى استدعى إلى الشام « محمد بن القاسم »[2] فاتح السند والبنجاب ، بعد أن فاز بمحبة الهنود لعدله وإنصافه ؛ والغريب أنه ليس ثمة ما يؤاخذ عليه هذا القائد العظيم سوى قرابته للحجاج ، فمن أجل هذه الصلة وحدها سامه « يزيد بن المهلب » أروع صنوف العذاب ، وعين مكانه « حبيبا » الذى برغم شجاعته لم يستطع أن يظفر بالمنزلة التى ظفر بها سلفه فى قلوب الهنود .

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة كان قد أهمل فى تلك الأثناء شؤون أسبانيا إهمالا تاما ، فلم يلبث الجيش أن انتخب « أيوب بن حبيب » ابن أخى موسى حاكما عليهم ، غير أن هذا التعيين لم ينل رضاء حاكم أفريقيا الذى كانت أسبانيا تعتبر جزءاً من إمارته . وما أن ولى « أيوب » زمام الحكم بضعة أشهر — نقل

---

(١) يقول ابن الأثير : « إن السبب فى مقتله هو الأثر السيء الذى أحدثه اقتياده لايلونا (زوجه) ومبالغته فى الأبهة والاحتجاب عن الرعية والتشبه بملوك القوطيين .
(المعرب)

(٢) يقول البلاذرى : « إن الهنود بكوا محمداً لسماحته وعدله وكرم خلقه . وقد رثاه « حمزة بن بيض الحنفى » بقوله :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤددا فى مولد

وقد قضى محمد وهو يتمثل بهذا البيت :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

(المعرب)

فى خلالها مركز الحكم من «سينيل» إلى «قرطبة» — حتى عزله «عبد العزيز» وولى مكانه أحد المضريين المسمى «الحر» . ويقال إنه غشى الأندلس فى أربعمائة من خاصة الأسر العربية الشهيرة فى أفريقيا ، فأصبح هؤلاء فيما بعد نواة طبقة الأشراف المسلمين فى أسبانيا . ومنذ ذلك الحين حتى بدء عهد الدولة العباسية ظلت أسبانيا يحكمها بالتتابع ولاة يعينهم تارة أمير المؤمنين فى الشام ، وطورا أمير أفريقيا الذى كان مقره القيروان . ولكن هذه السلطة الموزعة أضعفت الإدارة ، وأوهنت سياسة الحكم وبثت عدم الاستقرار ، كما حالت دون تعزيز المعاقل النائية . أما « الحر » فلم يبق فى دست الحكم غير ثلاث سنوات قام فى خلالها بفتوحات واسعة فى الشمال .

الفتوح فى بلاد الروم

وفى تلك الأثناء بينما كان سليمان مقيما فى قصره المسمى «دابق» بالقرب من جلكيس القديمة عام ٩٨ هـ ، وفد عليه « ليون » الملقب « بأيساريان » قائد القوات الرومانية فى آسيا الصغرى ، وأخذ يحرضه على فتح القسطنطينية مبينا له المزايا التى قد تجنيها الإمبراطورية العربية من هذا الفتح ، كما أخبره باستعداده إلى إرشاد جيش المسلمين إلى مواطن الضعف فى جيش الروم ، فبهرت تلك الأمانى البراقة والوعود الخلابة أبصار الخليفة ، وراح يمنى نفسه بالاستيلاء على أسبانيا جديدة ، وفى الحال أرسل « مسلمة » على رأس جيش كبير عبر به الدردنيل دون مقاومة تذكر ؛ كذلك أرسل أحد أبنائه على رأس جيش آخر إلى تراس لاحتلال عاصمتها المعروفة باسم « سكاليبات » أو مدينة « السلاف » .

وعلى أثر هذا الزحف عرض الروم على « مسلمة » مبلغا كبيرا من المال مقابل رفع الحصار ، ولكنه رفض طلبهم رفضا باتا مما حملهم على التفاوض مع مواطنهم الخائن والنزول على طلبه ، فعزلوا «ثيودوتوس» الثانى حاكم القسطنطينية ، ونادوا به إمبراطورا على عرش الدولة البيزنطية . ولما كان ليون يعرف مواطن الضعف فى جيش المسلمين فقد استطاع أن يرشد الروم عليها ؛ وقد قيل فى رواية أخرى

إنه أتلف قسما كبيرا من عتادهم قبل أن يفر إلى الروم . وهكذا لاقى المسلمون وأسطولهم على يديه أشد الأهوال ، وتفشت فيهم الأمراض ، وهاجمتهم الثلوج والمجاعة بأنيابها الضروس ؛ ولكنهم بالرغم من كل ذلك أصروا على مواصلة الحصار دون أن يفكروا فى الانسحاب إلا بأمر الخليفة .

وليس ثمة ما يبرهن على ضعف « سليمان » وعدم جدارته بملء المنصب العظيم الذى كان يشغله أخوه « الوليد » بكفاءة تامة بأكثر من الموقف المخجل الذى وقفه إزاء « مسلمة » وجيشه . ولو أنه ساعد هذا الجيش الباسل وسارع إلى تعزيزه بالنجدات لأخضع المسلمون القسطنطينية من غير عناء .

وفاة سليمان فى أيلول سنة ٧١٧ م

ومهما يكن من شىء فإن تلك المصائب التى حلت بجيوش المسلمين ، لهى أعظم من أن يقلل من هولها ذلك النجاح الذى أحرزه يزيد بن المهلب فى طبرستان وكوهستان ، الواقعتين فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، واللتين كان يحكمهما حكام وطنيون ، طالما تحدوا سلطان العرب ، واعتصموا بمعاقلهم المنيعة . وأخيراً وبعد فوات الفرصة هب « سليمان » من غفلته ، وقاد جيشاً آخر بنفسه ولكنه لم يكد يبتعد عن « دابق » فى منطقة « قنسرين » وهى البقعة التى رأى فيها الخائن ليون لأول مرة — حتى أصيب بمرض شديد توفى على أثره فى يوم الجمعة لعشر بقين من صفر عام ٩٩ هـ بعد حكم قصير غير لامع لم يدم إلا سنتين وخمسة أشهر . وكان « سليمان » مثله مثل أخيه ، يتوق إلى إسناد ولاية العهد لأحد أبنائه ، غير أن ابنه الأكبر الذى رشحه للخلافة كان قد توفى ، بينما كان الابن الثانى داود على رأس الحملة المنكودة الطالع التى سارت لقتال الروم ، ولم يكن محققاً وقتئذ هل قضى نحبه أو لا يزال على قيد الحياة . فاستولت على سليمان عوامل القلق ، ولأجل أن يحول دون وقوع الانشقاق الذى كان يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال كتب وصيته عند ما حضرته الوفاة بتولية ابن عمه « عمر » ثم أخيه « يزيد بن عبد الملك » .

كتب الخليفة هذين الاسمين على رقعة ختمها بخاتمه وسلمها إلى رجاء بن أيوب أحد مستشاريه الأوفياء ؛ فبايع أهل بيت الخليفة « مَنْ ولّى مِنْ غير أن يعلموا مَنْ سماه » . وكانت أخلاق « سليمان »[1] مجموعة من المتناقضات ؛ فكان سخيا مع أصحابه ، قاسياً كأبيه على أعدائه ، مغرما باللهو والسرور ، غير أنه كان يسمو إلى أقصى درجات النشاط والهمة ، فما إذا تأزمت الأمور ؛ وقد أكسبه ذلك سراح المسجونين حب الشعب فسموه « مفتاح الخير » .

عمر الثانى

بويع عمر الثانى الملقب « بالخليفة الصالح » لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين هجرية . وهو ابن عبد العزيز « أخى عبد الملك » الذى كان قد ولى على مصر فساسها بالحكمة والعدل . أما أمه فهى حفيدة « عمر بن الخطاب » ويعتبره أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين ؛ وكان من أبرز صفاته النسك والتواضع وحب العدل والاستقامة ؛ وكان فوق ذلك متقشفاً فى ملبسه ، غير مترف فى معيشته ، فساوره القلق على أمور المسلمين ، وعظمت عليه مسؤولية الخلافة . ويقال إن زوجه رأته ذات مرة بعد الصلاة يبكى ، فسألته عما يبكيه ، فقال : « لقد وليت أمور المسلمين وغير المسلمين ، فتذكرت الفقراء الذين يتضورون جوعا ، والمرضى المحرومين والمعوزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين والشيوخ المهيض الجناح ، فخشيت أن يحاسبنى الله من أجلهم حسابا عسيراً ، ولهذا بكيت » .

ولقد استفتح ولايته ببيع خيول سليمان وردّ ثمنها إلى بيت المال ، كما أمر زوجه أن تعيد ماوهبها أبوها من ثياب موشاة وجواهر نفيسة إلى خزينة المسلمين فصدعت بأمره مغتبطة مسرورة .

ويقال إن يزيد عرض عليها بعد وفاة زوجها أن يرد إليها مجوهراتها

---

(١) يقول المسعودى : إنه كان صاحب أكل كثير يجوز المقدار ، وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى . (المعرب)

وملابسها ، فرفضت ذلك قائلة إنها لم تهتم بها فى حياته ، فحقيق بها ألا تهتم بها فى مماته ؛ كذلك أعاد « عمر » إلى المسيحيين واليهود كنائسهم ومعابدهم التى سبق أن اغتصبت منهم ، كما رد إلى آل البيت أرض « فدك » التى كانت بيد رسول الله (ص) ثم استولى عليها « مروان » . وكان من المعتاد فى حكم الأمويين إلى ما قبل عهده الإساءة إلى ذكرى « على » وأهله ، فأمر عمر بترك هذه العادة وجعل مكانها « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم »[1] . ويقال إنه حض الناس على التمسك بمكارم الأخلاق ، وأنزل العقاب بكل معتد أثيم ، ورفع الأعباء التى كان الحجاج وأصحابه قد فرضوها على كواهل المسلمين فى العراق وخراسان والسند . ويعتبر عهد « عمر الثانى » على الجملة أحسن عهود الدولة الأموية ، ويشيد المؤرخون دائما بذكر الأعمال الجليلة التى قام بها هذا الخليفة المحب للرعية والمتفانى فى خيرها وإسعادها .

وفى غضون حكمه أمسك الخوارج عن حركاتهم الهدامة فى بلاد العرب وأفريقيا ؛ وبعثوا وفداً منهم إلى عمر يقول له بأنهم لا ينقمون عليه سيرته لأنه يحكم الناس بالعدل والإحسان ، ولكنهم لا يوافقون على مبايعة يزيد بولاية العهد لاستهتاره وتبذله . ولم يكن « عمر » يشجع التوسع فى الفتوحات بل كان يصرف همه إلى تدعيم أركان الدولة ، فاستقدم مسلمة من حصار القسطنطينية وأوقف زحف الجيوش الأخرى ، وشجع الناس على مزاولة الحرف ، وحاسب عماله حسابا عسيراً . وكان يعتقد أن «يزيد بن المهلب» حاكما مستبدا ، بينما كان يزيد يلقبه بالمنافق . وأراد « عمر » أن يحاسبه ذات مرة عن الأموال التى كتب بها إلى

---

(١) وقيل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (الآية) . وقيل بل جعلهما جميعاً . (المعرب)

الخليفة السابق ، ولما لم يقدم له جوابا شافياً حبسه بحصن حلب وظل فى سجنه حتى قبيل وفاة عمر .

ومما يؤثر عن هذا الخليفة أنه كتب إلى والى الكوفة كتابا يحض فيه العمال على إبطال جميع القوانين الجائرة ، و إزالة أسباب الشكوى ؛ وفيما يلى نبذة من كتابه : « إن قوام الدين العدل والإحسان فلا تستصغروا أى إثم مهما قل شأنه ولا تحاولوا تخريب البلاد العامرة ، ولا تفرضوا الضرائب الفادحة على الرعية ، وخذوا منهم ما طاقوا ، وافعلوا كل ما من شأنه أن يعمر البلاد و يزيد فى رفاهية العباد ، واحكموا الشعب باللين والرفق ، ولا تقبلوا هدايا المواسم والأعياد ، ولا ثمن المصاحف التى يجب أن توزع مجانا ؛ ولا تفرضوا الضرائب على المسافرين ولا على النكاح ، ولا الخراج على من أسلم من أهل الذمة » .

وكان ابنه — ولم يكن قد جاوز بعد السابعة عشر — يحمل فى سويدائه كأبيه رغبة ملحة فى إسعاد المسلمين ، فسأله ذات مرة لماذا لا يجتث الشر من قلوب المسلمين ، فأجابه بقوله : « إن ما تتمناه يا بنى لا يدرك إلا بحد السيف وحده ، ولكن لا خير فى إصلاح لا يتم إلا بالقوة » !

تولية السمح على الأندلس

وفى سنة ٧١٩ م عند ما انتهى إلى مسامعه خبر الاضطرابات الداخلية فى أسبانيا وتأكد من عجز « الحر » عن إدارة شؤون البلاد عزله فى الحال ، وولى بدلا منه أحد الرؤساء اليمانيين المسمى « السمح بن مالك » من عشيرة « خولان » . وكان إداريا حازما وعسكريا شجاعا ، فأعاد تنظيم الأمور المالية والإدارية ، كما أحصى — بأمر الخليفة — عدد السكان على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ، ثم مسح بلاد الأندلس مسحا تفصيليا من مدن وجبال وأنهار و بحار مبينا تربة الأرض ونوع المنتوجات ، كذلك بنى مسجداً جامعاً فى سرقوسة ، وشيد عدة جسور ورمم الجسور المتداعية .

قمع الثوار

ولما فرغ « السمح » من تنظيم أمور الدولة أقدم على قمع حركة الثوار

النصارى وسكان اللانكيدوك والبروفانس ، فانتصر عليهم وأمعن فيهم القتل حتى لاذوا بالفرار إلى معاقل الأستارياس الجبلية ، واكتسح أمامه « سبتمانية » وافتتح أربونة وصالحته المدن الأخرى . وقد كانت « أربونة » مكشوفة من البحر ، فعمد إلى تحصينها وتعزيز حاميتها ، ثم سار بجيشه إلى طولوز عاصمة الأكواتين وحاصرها حينا ؛ وفيما كان يستعد للهجوم عليها بالرغم من قلة عدد جيشه — إذ كان قد ترك عدة فرق فى المدن التى احتلها فى طريقه — وصل أيوديس أمير اكوتيانا على رأس جيش كبير لإنقاذ المدينة من المسلمين ، فأصبحت نسبة جيش المسلمين لجيش العدو كنسبة الواحد إلى العشرة . ولما رأى القائد العربى أن جيشه أصبح بين نارين ، سار إليهم ببسالته المعهودة وكسر قواده أغماد سيوفهم إيذانا منهم بالهجوم عازمين على الانتصار أو الموت ، وهم فى ذلك أشبه بحرس نابليون الذين كانوا يؤثرون الموت فى ساحة الوغى على التسليم إلى الأعداء . وظل القتال سجالا بين الفريقين ردحا من الزمن حتى سقط السمح مثخنا بجراحه وقد أصابه سهم فى جبهته . وما أن رأى الجنود مصرع قائدهم حتى هلعت قلوبهم وخارت قواهم ، لولا أن استولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى بحنكته على القيادة فى الحال ، واحتال فى سحب الجيش من بروفانس بمهارة وشجاعة أكسبتاه حتى إعجاب أعدائه .وقد وقعت تلك المعركة التى هلك فيها عدد كبير من قواد العرب المشهورين فى شهر إيار سنة ٧٢١ م بعد وفاة عمر بقليل .

الزحف على فرنسا

لم يستطع الأمويون أن يتحملوا صرامة حكم عمر ولا تناهيه فى الإنصاف وهالهم منه إعراضه عنهم وحرمانه إياهم مناصب الدولة ، وأحفظهم عزمه على تغيير وصية أخيه بولاية العهد ، فعقدوا النية على استخدام وسيلتهم المعهودة فى إزاحة مفخرة أسرتهم من سبيلهم ، ورشوا أحد الخدام ليدس له السم فى الطعام ، فكان

لهم ما أرادوا وقضى نحبه مسموماً فى دير سمعان على مقربة من حمص فى أواسط سنة ١٠١ هجرية .

استخلاف يزيد الثانى

صارت الخلافة إلى « يزيد الثانى بن عبد الملك » بمقتضى وصية « سليمان » أخيه ، وكان « يزيد » متزوجا ببنت أخى الحجاج ، ولهذا كان يتعصب للمضريين على الحميريين بعد أن كان عمر يحافظ على التوازن بين هاتين القبيلتين .

وفى زمن يزيد راحت مضر تسوم منافستها الاضطهاد ، الذى يعزى معظمه إلى السياسة الصارمة التى عامل بها يزيد بن المهلب أسرة الحجاج فى عهد سليمان بقصد محاسبتها على الأموال التى ظن أن الحجاج قد ابتزها من الناس . ولم ينج أحد من اضطهاده حتى ابنة أخى الحجاج زوج يزيد الذى أقسم بعد أن فشلت وساطته ليمزقن ابن المهلب متى أفضت إليه الخلافة ، فتحداه ابن المهلب بقوله : « إنك إن فعلت قابلتك بمائة ألف مقاتل » . ولما علم ابن المهلب وهو فى سجنه بدنو أجل عمر بن عبد العزيز رشا الحارس وفر من السجن مخافة أن يفتك به سميّه الأموى ، وصار إلى العراق رافعاً علم الثورة حتى غشى البصرة حيث كان يعيش الإمام الحسن البصرى رئيس المدرسة الفقهية ، الذى أهاب بمواطنيه ألا ينحازوا إلى أحد الطرفين ؛ ولكن شجاعة ابن المهلب وأخيه وكرمهما — وهما خصلتان تؤثران على العقل العربى — أشعلتا أهل البصرة حماسة فانحازوا إلى الأخوين ، وبذلك قويت شكيمتهما . ولكن يزيد الأموى لم يلبث أن أرسل مسلمة بن عبد الملك ، وعباس بن الوليد ، فى جيش عظيم لقمع فتنة الثائرين .

التقى الجيشان فى ميدان « العقر »[1] على شاطئ الفرات الأيمن ، واقتتلا قتالاً شديداً حتى دارت الدائرة على الثائرين . وقتل يزيد وأخوه حبيب وفرّ أصحابه الباقون إلى كرمان . ونشبت بينهم وبين جيوش الخليفة معركة أخرى

(١) هى عقر بابل قرب كربلاء من الكوفة ، وقد وقعت الحادثة سنة ١٠٢ هـ ، ويوجد عدة قرى بهذا الاسم فى العراق (معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٤ — ١٩٥) . (المعرب)

أسفرت عن قتل بعضهم والتجاء البعض الآخر إلى خاقان الترك . وكانت لثورة يزيد بن المهلب التى كادت تقوض أركان الخلافة الأموية نتائج بعيدة الأثر برغم قمعها ؛ كما أن استئصال شأفة « أزد » اليمانية التى ينتسب إليها يزيد بن المهلب « فى المعارك التى دارت رحاها فى الكرمان والعراق » فت فى ساعد الدولة العربية وألهب نار العصبية بين اليمانيين والحميريين فى أسبانيا وأفريقيا والمشرق .

وفى تلك الأثناء انتصر أعداء المسلمين فى كل مكان ، وأعان عجز الخلفاء وضعف بطانتهم واستعمال الحكام الجهلاء على نشوب الفتن الداخلية ؛ فمنيت الحملة العسكرية العربية فى بلاد أذربيجان بهزيمة منكرة ، بعد أن اشتبكت فى القتال مع الخزر والقفجاق سكان قوقاسية ؛ ونشبت الثورات فيما وراء النهر بسبب تعسف الولاة واستبدادهم ؛ كذلك لا نعلم عن أى نجاح أحرزته جيوش العرب فى ذلك الحين ، سوى فى آسيا الصغرى فى المعارك التى نشبت بينها و بين الجيش البيزنطى .

أما فى أفريقيا فقد حاول أحد عمال الحجاج السابقين أن يعامل أهلها — البربر — بالشدة معاملة الحجاج لأهل العراق فثاروا عليه ، واستفحل أمر الفتنة حتى استنفدت مصادر الإمبراطورية فى عهد خلف يزيد . ولم يكن الحال فى الأقطار الأخرى بأحسن منه فى أسبانيا بعد أن ساد الأمن فى ربوع البلاد فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وحفظ التوازن بين الحميريين والمضريين ، فلم يحدث فى عهده ما يدعو إلى الشكوى . غير أن نار العصبية القبلية استعرت من جديد بعد وفاته فانغمرت المدن فى منازعاتها وخصوماتها ، وراح العمال يفرضون الضرائب الباهظة التى كان أخو الحجاج قد فرضها فى اليمن فى عهد الوليد الأول وألغاها عمر الثانى . و يمكننا القول بأن هذا الإرهاق قد أدى إلى هجرة معظم السكان ، فألغيت القوانين العادلة التى سنها عمر ، وخرج الخوارج من مكامنهم يفتكون بالظلمة المستبدين بعد أن كانوا قد توقفوا ردحاً من الزمن عن أعمال

العنف والاغتيال . وفيما كانت الإمبراطورية تعصف بها ريح الاضطرابات من كل حدب وصوب ، وتقع فيها هذه الحادثات ، كان « يزيد » يتبادل الحب ويرتشف كؤوسه المترعة مع سلامة وحبابة جاريتيه الفتانتين[1] ربى الحسن والبهاء ؛ ولكن المنية عاجلت حبابة ، فلم يلبث أن أرمضه الحزن وأضناه الأسى حتى لحق بها بعد قليل ؛ وعندئذ تنفس بنو أمية الصعداء . والحسنة الوحيدة التي يمكن أن تسجل ليزيد هي أنه أنقذ « فاطمة بنت الحسين » (شهيد كربلاء) من تعسف عامل على شاكلة الحجاج كان قد طلب أن يتزوجها ، ولما أبت النزول على طلبه هددها ، فكتبت إلى « يزيد » فعزله في الحال وأنزل به أقصى أنواع العقاب .

الدعوة العباسية

وفي تلك الأثناء بدأت الدعوة العباسية تنتشر في المشرق ، كما ظهر دعاتها لأول مرة في خراسان على هيئة تجار أبرياء . ولما تناهى خبرهم إلى مسامع « سعيد »[2] عامل بني أمية سألهم عن صحة دعوتهم ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً بارعاً حتى أخلى سبيلهم . بيد أن الولاة الذين جاءوا بعده لم يكونوا بمثل بساطته وتساهله فلم يقتنعوا بأقوالهم وشرعوا يشددون عليهم النكير . ومما يلاحظ أن هؤلاء الدعاة مع ما كان ينتظرهم من قتل وتشريد — لو اكتشفت مؤامرتهم — راحوا يبثون الدعوة بنشاط منقطع النظير ؛ وبالرغم من جميع المحاولات التي اتخذها العمال في إحباط مساعيهم وسحق حركتهم ، ظلت دعوتهم تنتشر في الخفاء ، وشرع الناس يعتنقونها بحماس مفرط ، فلم تمض مدة وجيزة حتى امتلأت بلاد الفرس بالجمعيات السرية المتفانية في تقويض دعائم الدولة الأموية ، وتضافرت عوامل شتى في ذلك الحين على توسيع نطاق المؤامرة وإضرام نار الثورة التي اشتعلت فيما بعد كما تشتعل النار في الهشيم ، واكتنفت البيت

(١) جاء في كتاب الأغاني : « إنهما كانتا أديبتين ترويان الأشعار وتضربان على العود وكان الناس في الحجاز تتناقل أبياتهما في الأندية الخاصة والعامة . (المعرب)

(٢) لقب خزينة إذ أنه اعتاد ارتداء ملابس النساء الفارسيات .

الأموى بلهيبها المستعر حتى تقوضت دعائمه . ويلاحظ المؤرخون أنه ما كادت إصلاحات « عمر » وعدالته تمحو من أذهان الناس مظالم الحجاج وعسفه حتى أعتلى يزيد عرش الخلافة ، فأثارت أعماله الوحشية وتنكيله بأسرة سميّه الثائر « يزيد بن المهلب » كمين الأحقاد فى قلوب اليمانيين ، ولا ننسى أن ثمة سبباً آخر أكثر شأناً وأعظم خطراً أعان على تمهيد السبيل للعباسيين ، وهو أن المسلمين كانوا يتوقون إلى أن يسترد آل البيت حقوقهم المسلوبة ، وهذه الرغبة الملحة أزكتها تصرفات « يزيد » وسوء حكمه ؛ كذلك كان الشعب فى هذه الفورة يتطلع متلهفاً إلى إشارة الأئمة القاضية بإعلان الثورة ، ولكن يلوح أن هؤلاء العلماء الأتقياء كانوا قد نبذوا الحياة العملية جانباً ، وباعدوا بين أنفسهم وبين العالم الدنيوى . وفى خضم هذا القلق المضنى الذى استحوز على البلاد ظهر بنو العباس يروجون لقضيتهم ويبثون دعوتهم بين الناس .

بنو العباس

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد توفى سنة ٣٢ هـ ، وله أربعة بنين وهم : عبد الله ، والفضل ، وعبيد الله ، والقيسان . ويعرف عبد الله فى التاريخ باسم « ابن العباس » ، ولد فى مكة سنة ٦١٩ م أى قبل الهجرة بثلاث سنوات ، واشترك الأبناء الأربعة فى يوم الجمل وموقعة صفين . وكان ابن العباس فقيها عالما وجنديا شجاعا ، كما قاد بنفسه فرقة الفرسان فى الحروب تحت لواء على بن أبى طالب الذى أراد أن يكل إليه أمر التحكيم بدلا من أبى موسى الأشعرى حينما أجبرته جنوده المتمردة على قبول اقتراح « معاوية » .

وقد توفى ابن العباس فى الطائف سنة ٧٦ هـ وعمره ٧٠ سنة ، فحذا ابنه سميّ الخليفة العظيم حذو أبيه فى حبه وإخلاصه لأولاد « فاطمة الزهراء » . ولما توفى سنة ١١٧ هـ انتقلت زعامة الأسرة لابنه « محمد » ، وكان رجلا على جانب عظيم من الدهاء السياسى والنشاط وطموح النفس ، وهو أول من فكر فى طلب البيعة لنفسه .

الدعوة لبنى العباس

أخذ محمد يبث فكرة جديدة كى يبرر بها دعوته للخلافة ، وهى أن زعامة الإسلام الروحية بعد مقتل الحسين فى كربلاء لم تنتقل إلى على بن الحسين (زين العابدين) ، إنما انتقلت إلى محمد بن الحنفية الذى أوصى إلى ابنه أبى هاشم ، وهذا أوصى بدوره إلى محمد بن على بن عبد الله ، فراجت هذه الإشاعة فى بعض البلاد ، كما طفق دعاة العباسيين يؤكدون للعامة أنهم إنما يبثون الدعوة لأحفاد الرسول ؛ وقد بلغ من ثقة متشيعى آل البيت بهؤلاء الدعاة أن شملوهم برعايتهم دون توخى موافقة أئمتهم . وبذلك نال محمد بن على وأصحابه مؤازرة حزب قوى شديد الخطر ساعدهم على صبغ دعوتهم بالصبغة الشرعية التى كانوا فى أشد الحاجة إليها . ولما حضرته الوفاة سنة ١٢٥ هـ أوصى لأولاده إبراهيم ، وعبد الله أبى العباس (الملقب بالسفاح) ، وعبد الله بن جعفر (الملقب بالمنصور) ، بالتعاقب فقاموا بالدعوة بنفس الإخلاص والهمة والنشاط .

منظر دمشق من جهة النهر